خِفَّةُ أَنْجُم

(تقمُّصُ ظمياء الطود ، حيواتها السابقة ،كم مَرَّة ماتت قتلاً)

حكاها : بن تلَد برجاس

يرويها : فرحان ريدان

F.Ridan

1

.. وكانت تحب الكزبرة ،أضاف برجاس،وكان زوجها ثعلبا في الأناضول،وسلجوقيا أيام المماليك،ودرزيا أيام ديغول ..ومن أسمائها :أروى المعمر،ظمياء الطود،سافو بنت رومولوس ..وكان اسمها لميا بنت العَرَّاد يوم فصلوا رأسها بمنشار بادح .وفي بصرى الشام راودتْ راهبا غنوصيا ، عن نفسه، عشرين عاما،وقد عاشت في شهبا خمس سنين ثم قتلتها أمُّها ولما تزل طفلة : رأتها تأكل من طنجرة نحاس ثعابينَ مذبحة،مسلوخة ويكدمُ بعضُها بعضَها.عرفتْ انها هي ، قتلتْها في الليلة ذاتها:خنقتْها وهي نائمة.غير أن برجاس يشك في أن الأمَّ رمَتْ بنتَها في بئر هورا وأنها عادت لتراها أمامها تمضغ الخرُّوب صامتة، ونفى ،في مضافة ناهي،أن يكون المبروكي هو الذي لفَّ أخته في خرقة وتركها للضّباع شرق رُجْمة العبد في رُقَّة المقرونين.لكنه أكد،وهو مَن هو، أن رجمةَ العبد قبرُ جلمود ، أخيها التوأم ، لأن ظمياء الطود ،وفي جميع أجيالها، لم تأت إلى الدنيا وحدها.والجنِّي الذي قُتلَ غيلةً والذي،قيْلَ،يظهر في الليل،يفردُ عظامَه وينتحبُ،ثم يهيم بين رجوم المقرونين ..لن يخوض حكايته لأنه ،هو،برجاس، لم يفهمْ ،بعدُ،الرابطَ بين الحكايتين.فانطلقتْ صيحات الإعجاب من جميع الحاضرين ،قدَّروا تواضعَه،نهض ناهي وقدَّمَ قهوة مُرّة لبرجاس . تناول القهوة ثم هزَّ الفنجان وأعاده .وكي لا يشربَ أحدٌ من الفنجان ذاته بعْدَ برجاس،هوى ناهي بالفنجان على بلاطة الأرض المنحوتة في الصخر،فابتهج الحاضرون لهذا التبجيل،أطبقَ نايف علبة التنباك المفضضة،بلَّلَ الورقة بطرف لسانه ، لفَّ سيجارة وقدمَها لبرجاس ،ونهض فضلو فأولعَها ،ومن باب المضافة المفتوح لاحتْ قناديلُ شهبا كأنها معلقةٌ في الفراغ ، شحَّتْ الكلمات حتى فاض الصمت،فهُمْ يصمتون إذ يصمتُ ،وهو،برجاسُ،يروي ولا يفسِّرُ،يلفظ الكلمة موجفا قلوبهم ،وإذ يتوتر الإيقاعُ،أو يحتدمُ ،يصمت بَغتةً ،حابسا أنفاسَهم كالطاغية ، شابحاً أرواحهم كالغسيل .

2

بظهوره الواضح في عزِّ النهار،وعويله في رجمة العبد،وتمكينه أبناءَ الناس من رؤيته في التجسُّد ،يكوْنُ هذا الجنِّي قد حادَ عن نواميس الجن،وغامرَ بقرمز العتمة، وفرَّطَ بالغموض المشِعْ.وأهالي تل صُعُد الذين هالهم كلامُ الرعاة وقفوا واجمين ،أما الأولاد فما إن رأوا إلى ارتعاد أهلهم حتى اندفعوا شرقا ، فاخترقوا المقبرة على كتف التل،وتقافزوا حذْراً فوق الصخور وحُطام البطم،ثم اجتازوا طريق الكابتن كاربييه حتى إذا انبسط السهل أمامهم ركضوا صوب رجمة العبد،وانطلقوا في سهل هورا كأنهم يتسابقون.تردد الكبار ثم ظهرَ فضولُهم على وقارهم،تخففوا وتبعوا الأولاد.وبأكفالهن الرجراجة،وأثدائهن المندلقة،وأرواحهن الفاترة ركضتْ النسوة خلفَ الرجال ، فنزلن التل وثرثرنَ فوق السهب وأثلام العدس تتقدمهن ريوف بنت كايد وهندة بنت شملكان.وعلى أقدامهم،وعصيهم،تحامل المكاسير والعُجَّزُ وجرجروا أطرافهم إلى صخرة المنطار ،وقد وصلتْ أم عويضا قبلهم، في يدها عكازة نصلتْ وحالَ لونُها،وبين قدميها طحلبٌ تكلَّسَ وتفشى بقعا نافرة لها ملمس القنبيط،وأمام عينيها امتدت الدنيا شرقا حتى العراق وشمالا حتى جبل الشيخ " يا إمام الزمان" لهثَتْ وعيناها عالقتان بالرُّجْمَة ، فلم تتبيَّنْ سوى أهلها وركضِهم الراعش في سهل هورا " مثل عسكر الفرنساوي يوم هجَّوا من القلعة " هَجَسَتْ،والتمعَ سطحُ المياه في مطخ السَّرْج فتذكرتْ القصدير المذاب ،استندتْ إلى عكازها وطبزتْ على الصخرة ،طرحتْ العكاز قربها وفرَدَتْ كفيها في وجه القنَّبيط ثم رفعتْ عجيزتها وسحبتْ جسدها تجاه الهاوية وكان السرابُ يرقِّصُ شخوصَه في خربة الأوس،وطريقُ الكابتن كاربييه المرصوفة بحجارة الدبش،تلتفُّ وتحزمُ جِذْعَ التل،وتتلوَّى عند التقائه بالسهل،ثم تستقيم وتندفع شمالا تجاه ضْميْر متخذة مسارها المتقلقل، راسمةً الحدَّ الشرقي لسهل هورا،حائلةً بينه وبين رُقة المقرونين وصخورها الصلدة، السوداء واللاصفة،والتي تربض في رهبة،وتتخذ في ضوء القمر أشكالَ كائنات عملاقة تجثم حابسةً أنفاسَها.

أقفرتْ الأزقةُ في تلِّ صُعُد،وارتعش البابونجُ فوق السطوح،وزرقَ الدجاجُ فوق بُسُط البيوت،وعلى بيادر المزار نهضَتْ ناقةٌ وهي تعلك ..

سِدَّ بوْزَكْ ولا! . صرخَ فضلو في وجْه نصَّار .

3

كانوا يقطعون الليل في مضافة ناهي،وكان فضلو يقول إنه بينما كان يقتلع الشِّيحَ والجِزْل في رُقَّة المقرونين،إقتربَ من الرسم الغربي ووقف في ظل رجمة العبد كي يبول،رأى رجُلاً يتربع وسط دائرة الرسم ويلتهمُ عروق كزبرة،وإذ حَلَّ دكَّة شرواله رفع الرجل رأسه وسألَه : دخان! معك دخان؟.. رمى له العلبة المفضضة وابتعد قليلا وبَال.عاد ليأخذ علبته فباغتَه الرجل:لا أعرف كيف ألفُّها! وطوح له بالعلبة.التقط فضلو العلبة في الهواء ولفَّ له سيجارة .نهض الرجل ليأخذها : مَدَّ ذراعَه فوق حائط الرسم،فلاحظ فضلو أن يدَ الرجل تنتهي بأظلاف كتلك التي للماعز،فقاطعه نصار:لفّها ولك فضلو ! وقال مزعل ابن بندر: "الجنّي اللّي في رجمة العبد هو ابن هارات" فلم يعلِّق أحدٌ،وتظاهر ناهي بأنه لم يسمع،ورمقَ متروك عطا ابنَ جُرْهُمْ بطرف عينه،وإذ دخلَ برجاسُ نهضوا جميعاً ووقفوا صامتين.

بدأ الحصَاد،ونصب جرهم خيمةً في السهل.في اليوم السابع ارتعشتْ أمامَه عروقُ الشعير،ثم ماجتْ واضطربت،ظن أنها زوبعة عابرة،لكن حَيَّةً حمراءَ اندفعتْ أمامه في حركة مباغتة،ثم ذهل وهو يرى ثعباناً أسودَ يطاردها في ضراوة.دارا،رعَّشا زروعَ السهل،اشتبكا والتفَّا،انجدلا أمام عينيه ما يوحي بمعركة عاتية ، التقط حجَراً صلداً ملئ كفِّهِ،فانسَلَّتْ الحيةُ مبتعدةً تجاه رجمة العبد،التفَّ الثعبانُ لاصفا ومرعباً واندفع خلْفَها،وإذ رفعَ رأسه المتَّقد فوق حجارة الحدّ،ضربَهُ جُرهم بكل ما أوتي من رعب فرضَخَ رأسَه. استجمع شجاعتَه،دَقَّ عنقَ الثعبان وهو يرتجفُ ويرى إليه كيف يتقلصُ، ثم يتجمَّعُ أقواسا غليظة ،ويمُوْزُ،ويترعَّشُ.

بعد ساعة،وصل ابنُهُ اسماعيل يحمل الزوادة وقربةَ ماء،وركض الطفل كي يتفرج على الحنَش الذبيح.سأل أباه : وين؟. "قدامك عند القعقور" ردَّ جرهم.أشار الطفل بيده الصغيرة غاضباً: ما في شي!.نهض جرهم وهو يمضغ، فلم يجد للثعبان أثراً.توقف عن المضغ وأطرَقَ مفكراً،لفظ نواة التمر في كفِّه.وينو؟أعاد الطفل سؤاله. الله أعلم. تمتمَ جرهم.

توسل اسماعيل إلى أبيه أن يسمح له بالمبيت في الخيمة كي يتفرج على النجوم وهي تهوي حاملةً أعمارَ الناس،لكن جرهم توجَّسَ أمراً مريباًولا يريد لابنه أن يبيتَ معه في السهل. قال :

"يالله ياروحي ..ارجع ع البلد ..يالله مثل الذيب " . عاد اسماعيل تجاه تل صعد والغسقُ يذهِّبُ الغيوم فوق وادي اليرموك.رآهُ جرهم وهو يبتعد ويتلهَّى،مرَّةً يضربُ حجَراً على قطاة عالية،ومرَّةً يتربَّصُ بالجنادب قبل وثوبها.وإذ تلألأتْ نجمةُ الصبح،شَعَرَ جرهم كأن صوتاً يناديه،نهض على عجل،فرأى رجالاً في زيِّ عسكري مهيب ينتظرونه قدام الخيمة صامتين.تحرك قائدهم تجاه رجمة العبد في رُقَّة المقرونين، فهِمَ جُرهم أن عليه أن يتبعه،وخُيِّلَ إليه أنه في موكب،وأن الجنود الأربعة الآخرين يسيرون خلفه.وما إن فكَّرَ أن يرفع قدَمَهُ ويمشي، ارتفعَ في الهواء ،حَلَّقَ،ثم حَطَّ كما الطائر بين رجمة العبد وصخرة العيُّوطة.كان تحليقُه رشيقا كالنسائم،وجسدُهُ خفيفاً كالبهجة،وكان ضوء القمر يفضض صمتَ الرُّقة،حتى أن جرهم ميَّزَ عروق الدردار من عروق الهندباء،ورأى التماعَ دلوٍ معدني مقلوب.دخل قائدهم في صخرة العيوطة،دخل من صفحتها الجنوبية،الملساء،السوداء واللاصفة،ودخل جرهم خلفه،فانفتح المشهد على قصر ملكي لألاء،يتوهج فيه الذهب،وتنسرب في ثناياه إشراقاتُ نور شفيف،وبهاءٌ آسِرٌ.ثم في رهبة،جلس ملك في يده صولجان على عرش مهيب.لمحَ جرهم،في ركن من القاعة الفسيحة،رجلا أسودَ مُسَجَّى،طويلا وقويَّ البنية،ورأسه معصوبة بالأبيض،ربما كان شاشاً أبيضَ،ثم أحسَّ بسخونة مباغتة بين عينيه،كأن أحداً يسلط على جبهته شعاعاً وهَّاجاً،أدار وجهَه:ثمة امرأةٌ تنظر إليه،إلى عينيه خاصة، إنها واقفة قرب المسَجَّى في صمت،وإنها ناحلة متَّشحة بالبنفسج،أو القرمزي المعتم،اللون الذي يجتذبُ حديثي النعمة،وإنها تنظر في عيني جرهم. " رامِنْ " .. نطقَ الملك . ارتعش جرهم ودخلتْ صبيةٌ كأنه الإشراقة وجلستْ عن يسار الملك.لاحظ جرهم أنها فتية،يضوعُ جسدُها ندىً،ويتفتَّحُ صِباً،ويُشعُّ بابونجاً..وأحسَّ أن روحَهُ انخطافُ سنونو ، تئن ،وتندلقُ على خصرها،وسمعَ الهواءَ يتعذَّبُ ،ويتأنَّثُ في حضورها ،ويصرخ في حضرتها: شذا استبد... شذا استبد . ارتفعَتْ جثةُ المسجَّى قليلاً في الهواء،ورآها جرهم تتقدم كأنما تحملُها رافعةٌ غير مرئية،وظلتْ عالقة في الهواء قدام الملك،وران صمتٌ .

هارات ! .. نطق الملك وارتجفتْ الجثة :

كنتَ مارقاً من المرَدَة فجعلتُكَ حاملَ الصولجان

ظلَّلْتُكَ مثلما ظلل الحَوْرُ الهندباء

فتطاولتَ كي تشربَ رامن ، سيدتَكَ ، ابنتي، الأميرة رامن

عُدْ إلى عماء الهيولى

جرهم الذي لا يعرف القراءة،قال هذه الكلمات بلا خطأ، كأنه يحفظها ،أو حُفِّظَها ،حكاها قبل عشرين عاماً في مضافة القميزي بوغنام بحضور برجاس(وقال يومها:يلعن والدي إذا كنتُ أكذب .فقلنا له:إنت كبير القدْر) وأوضحَ برجاس أن الجثة ذابت ما إن نطقَ الملكُ " رِضْمْ " .ورأى جرهم حجرين واقفين في الهواء،في الحيِّز الذي كانت تشْغَلُهُ الجثة،الأول كرأس جَدْي،والثاني بحجم الصَّاع،فاقشعرَّ بَدَنُهُ:لقد حمَلَ الحجرَ ذاتَه بيديه الإثنتين ودَقَّ عنقَ الثعبان على حجارة الحدّ.شعَّتْ بقعة هواء مقابل الحجرين،وانبثقتْ قطعةُ ذهب دائرية،لصَفَتْ ووقفتْ في الهواء،تبعَتْها قطعٌ أخرى،راحت تدوْرُ وتحطُّ فوق سابقاتها،مكوِّنةً عاموداً،يرتفع ويتنامى،إلى أن ارتعَشَ الحجران،وارتفعا قليلاً، كأن ميزاناً ترْجَحُ منه كَفَّةٌ على أخرى،فهِمَ جرهم أن الذهبَ له .. ووجَدَ نفسَه قدام الخيمة،وفي يدِهِ كيسُ خام أسمرَ ، كالصُّرَّة. تذكَّرَ ما سمعَه عن قابلة صُعُدْ ، يوم جاءتها امراةٌ غريبةٌ وطلبتْ إليها أن تساعدَها لأن " حرمة تعَسَّرتْ ولادتُها " . قادتْها الغريبةُ إلى خربة كايد،دخلتْ في الجدار الحجري الأسود ذي المدماكين،ودخلتْ أم خليل الدَّاي وراءها.رأتْ نسوةً يتحلَّقن حول امراةٍ في المخاض ." زيحوا هيك " قالت بلهجة آمرَة،فنهضن مذعورات في قفزات أقرب إلى النط.ألقَتْ نظرةً فاحصة على الولاّدة ففهمت أن في بطنها توأماً،قالت لها: " قومي" فتقاعسَتْ المرأة.صرخت ام خليل في وجهها: "قومي .. فزّي! " خافت المرأة ووقفت وهي تئن،فزجرتْها ام خليل : " بدِّيش إسمع صوتِكْ " فأخرستْها.أخرجَتْ المولود الأول الذي كان رأسُه متقدما،وتطلَّبَ إخراجُ الثاني جهداً أكبَرَ .. إنهما ذَكَران صغيران . نهضتْ النسوة وشكرنَ أمَّ خليل ثم اقتربَتْ إحداهن وفي يدها طاسةُ نحاس مملوءة بقطع برَّاقة .رفعتْ أمُّ خليل طرفَ إزارِها الجورسيه المعرَّق فأفرغتْ المرأة طاستَها في الإزار.اتَّجَهَتْ ام خليل نحو الباب،وأوشكَتْ أن تُدْخِلَ قدَمَها في حذائها،فإذا بأحد الوليدين يضع قدميه في فردَتي الحذاء ويركض بهما،فانعقدَ لسانُها ،ثم ركض الوليد الثاني ودَسَّ قدميه في الحذاء،صارا متخالفين،ظهْرُ أحدهما للآخر،وراحا يتدافعان بالأكواع،ويتجاذبان الحذاء،ثم قفز أحدهما وتسلَّقَ كتفَ أم خليل،نظرَ إلى طربوش المخمل الأحمر تحت غطاء رأسها،رفعه قليلاً وتأمَّله،ثم أعادَه ووضعه على رأسها وأخذ يطبطب عليه بكفيه الصغيرين كأنه دربَكَّة.قفز أخوه إلى الكتف الثاني،وصار يتفرَّجُ على وجْه أم خليل،ثم حشر إصبعَهُ في أذنها وهمسَ لها:درَّاقة! . صمت قليلاً

وأضاف:سفرجَلة! ..والحقيقة فإن اسمَ أم خليل : تفاحة !. ويبدو أن الصغير قد أخطأ في الصورة البصرية،الصورة المتحرِّضَة من أفكار أم خليل .الأفكار التي يتلقَّاها الجنُّ،على شكل صورة،من دماغ الكائن البشري ما إن يهجس بها .همسَ الوليد الأولُ:وحواحَة! ..ولا شك أنه عرف اسمَها بدقَّة،لكنه أراد أن يدلِّعَها،وقد نطقَ بذلك تحبُّباً.نهضت الأم شبه عارية،فانزلق الصغيران عن كتفي أم خليل وركضا إليها.ورأتْ أم خليل كيف يرتقي كلٌ منهما في الهواء،مرفرفاً بأطرافه كطائر الطنَّان،ويرضع.فكَّرتْ أن تترك حذاءها وتخرج حافية،لكنها لم تكن قادرة على تنفيذ هاجسِها،كانت مُسَرْنِمَة،مثلما نهربُ،في نومنا،من ذئب.وهي،أم خليل،مِثْلُنا جميعا، تعرفُ أنه يكفي أن تنطقَ: بسم الله الرحمن الرحيم كي تُفْلِتَ من هذه الدوَّامة،لكنها مشوشة،تختلط الكلمات في رأسها وتدور،ولا تستطيع التقاط مفردة واحدة،أحسَّت بعجزها،ووهن قواها،وتلاشي نفسها.باغتَها شيءٌ كالنعاس،انحبسَتْ انفاسُها،رأتْ بياضاً لا حدودَ،ولا قرارَ،ولا انتهاءَ له،وجدتْ نفسها ترفُّ في العدم.وإزاء هذا الحصار المطبق،والمباغت لروحها،انتفضَتْ وصرخَتْ: " يا مولاي العقل" .كان صوتها يطنُّ في أذنيها لحظةَ فتحَتْ عينيه،غير أن صوتَها لم يخرجْ،أبداً،خارج حلقِها.قالت كالغرقى :" لا إله إلا أنت سبحانك " فوجَدَتْ نفسَها قدام دارها،في الزقاق الضيِّق الذي يفصِلُ الدارَ عن بِرْكة الحجيج .الركة الرومانية ذات الأدراج المنحوتة.وقفت تحت القنطرة ذاهلة،انتبهت لإزارها،نظرتْ فيه،رأت ما يشبه قشور بصل.أفرغتْ إزارَها في الزقاق وركضت إلى البيت الغربي،حيث كان أبوخليل والأولاد يغطون في النوم.عندما نهضت في الصباح فكَّتْ إزارها قرب الباب،فوقعتْ ليرةٌ ذهبيةٌ لاصفة،ورَنَّتْ على حجر العتبة.حارت.فكرتْ قليلاً ثم ركضتْ إلى الزقاق : رأتْ لصخات روث طريَّة ، وديكاً يَلُمُّ بدجاجة.

"لا! "..صرخَ جرهم في سِرِّهِ،وهو لن يكون غبياً كأم خليل.شدَّ أصابعه على عُنق الكيس ودخلَ الخيمة.استدار.أجالَ بصَرَهُ في السُّهُب،أصخى، لم تلتقط أذنُهُ أدنى نأمة،ولم يرَ سوى الصمت.لكنه أحَسَّ انه مُراقَبٌ.ثمة،في مكان ما،عينٌ تراقبه،كان متأكِّداً،لقد لمح هذه العين بطرف عينه،لكن،أين هذه العين؟تقدَّمَ خطوةً خارج الخيمة،نظر إلى البعيد،دار والتفتَ وراءه،بحْلقَ داخل الخيمة،خرج ودار حوْلها،وإذْ أبصَرَ القمرَ صرخ مرتعباً: " ولاااك! " وقفزَ في الهواء.كان القمرُ قريباً كما لم يرَهُ من قبل،وكان يحدق فيه،فيه هو,جُرهم،بشكل خاص،وفي صمت.شَعَرَ أن هواجسَه مكشوفةٌ،وأن القمرَ يُنقِّبُ في ثنايا نفْسِه،فأراد أن يُثبتَ لنفسه،وربما للقمر،أنه ليس خائفاً.راح يتمشَّى بين عروق الشعير ويُصَفِّر،لكنه

لاحظ أن هذه الحركةَ مفضُوحةٌ.فكَّرَ في تصَرُّف أكثر تلقائية، لم لا يدخِّنُ لُفافَةً؟سحبَ العلبة المفضضة من جيب شرواله الأسْوَد،وضع كيسَ الخام تحت إبطه،فتح العلبة وهَمَّ بسحب ورقة لفافة،فارتعشتْ أصابعُهُ بَغْتَةً،ضغط العلبة بين كفيه،فشِلَ،مرَّةً أخرى،في سحب ورقة.أذهله أن هذا الفعلَ البسيطَ،والذي اعتاد القيام به دون تفكير،يحتاج منه،الآنَ،كلَّ هذا الجهد،وكلَّ هذا التركيز،وأنه عاجزٌ عن إنجازه،فشعَرَ برغبة في التبوُّل.وضع العلبةَ في حَلْقِهِ .فَكَّ دكةَ شرواله.وكي يبدو غيرَ مكترث،أوخائف،راح يبولُ ويدندنُ: " يا إمَّاني ريتك بُوْلْ"، لكنه اكتشفَ أنه يبول في شرواله،جهةَ الفخذ الأيسر.اقشعرَّ بدنُه واجتاحتْه حُمَّى.ركض إلى الخيمة،أو إنه فكَّرَ أن يركضَ إلى الخيمة،ويحفر بيديْه حفرةً عميقة على شكل جرَّة،أو فراغ الجرَّة في قالب جِصّ،أسقط الكيسَ في الحفرة،أهالَ فوقه تربةً حمراءَ ناعمةً،رشَّ عليها ماء القربةَ،ثم فرشَ فوقها حصيرً ملساء ناصعة وغطَّاها بشمائل الشعير..وضع مخدَّتَه فوقها ونام.تناهتْ إلى سمعِهِ أغاني الحصَّادين،فتحَ عينيه ورأى الشمس بارتفاع ناقة واقفة,فهِمَ أن عليه أن ينهض،لكنه كان دائخاً،أغمضَ عينيه برهةً امتدَّتْ ضحىً.حين صحا،أدار رأسَه على المخدَّة،رأى في السُّهُب،ومن فضاء باب الخيمة،بدويَّةً تمشي تجاه رجمة العبد ووراءها ناقة بيضاء.إنها ناقة وليست بعيراً،فقدْ عبَرَ بَعْدَها قاعودٌ صغير يتبَعُها ساهماً.خُيِّلَ لجُرهم أن القاعود وقف قليلاً وأدارَ رأسه نحو الخيمة،خيمة جُرهم.جلسَ على الأرض،أدركَ أنه لا يمتلكُ الجرأةَ على مواجهة النهار،كالعروس بعدَ ليلتها.استلقى.حاول النوم فلم يجرؤ على إغماض عينيه،وعاوده الإحساس بأنه مراقب.وأنه لو سَهَا،فإن شيئاً ما ، كائناً ما، سيدْهَمُهُ..الخيمة تضجُّ بالصمت وعيناه تراقبان الزوايا في ذعر.فكرَ أن يركضَ خارج الخيمة،لكن الخارج يتربَّصُ به،يرعبُهُ أكثرَ .سحب البطانية الرمادية وتكوَّرَ تحتها،ضمَّ ركبتيه إلى صدره وأخذ يرتجف،ويتعرَّق في لهاثٍ محموم.

" جْلودْ ياصابون " .جاءه الصوت ضعيفا كأنه من أصقاع نائية،لكنه كان واضحاً،وصافياً،وحقيقياً،ومِنْ هذا العالم.فالبائع الجوَّالُ يُعلنُ عن وصوله إلى تل صُعُدْ.وقد رأته زاد الخير يقوْدُ بغلتَه السوداء وينادي على بضاعته : " مَعنا أساور..معنا صابون..معنا كُحل ..معنا يانسون .. جلود يا صابون .. "

وكان ينطقُ صابون ويمُطُّها : صابووون . وهي النبرةُ التي سمعَها جرهم في السهل،وتعرَّفَ على صاحبها : نجم العبيدي .صمتَ برجاس ثم أنشدَ ساهما :

يقولون بأرض حوران نجم العبيدي حايش ملوك الجان بالبتَّار

كانت تحثُّ ناقتها البيضاء تجاه تل شيحان،وكان العبيدي يغذُّ السير جنوباً صوبَ بُصْرى،وحين مال إلى عين الجهير،تقاصرتْ المسافةُ بينهما ."المسافة" تمتمَ برجاس وصمت.استبدل ناهي كأس برجاس بكأس جديد ساخن.رشف برجاس رشفة وقال: " القاعود بَس لَمَحْ العبيدي ركض لَ عندو " .غير أن البدويةَ زجرتْهُ . ارتجف القاعود وتوقف، استدار وعاد إليها مرغماً. لفتَتْ العبيدي هيئةُ القاعود،تأمَّلَ آثار قوائمه على التربة الرطبة : إنها آثار أقدام آدمية .ترجَّلَ العبيدي عن بغلته فنظرتْ إليه البدويةُ نظرةَ ذئبة.لم يشك في أنها من الجن،ولم تشك،هي،في أنه كشَفَها.خاطبَها:"يا بنت ! وشْ طلَّعِكْ عَ هالأرض ؟ " . فلم تُجبْ.تجاهلتْه في صَلَف.سحبَ رُمحاً فولاذياً صغيراً،كالمغزل،وغرَزَه في الأرض،فنظرَتْ في عينيه كأنها تتحدَّاهُ ،أو تُرهبُه.دَقَّ الرمحَ فانخسفتْ الأرضُ تحت قدميها.همهمَ الحضورُ: " اللهم صلي على محمد " دق الرمح بقوة وصاح بها آمراً :

- فُكِّي عن الولد !
- جُرهم قتلَ ابني الوحيد هارات
- جرهم قتلَ ثعباناً.. فكي!

ودقَّ الرمح.فركض إليه القاعودُ في زوبعة غبار،ما إن صارتْ قُرْبَهُ حتى انقشعَتْ،وظهَرَ منها اسماعيلُ ابنُ جرهم ، ولاذَ خلْفَ العبيدي." لا إله إلا الله " صاحوا جميعاً في صوت واحد في مضافة ناهي..

وفَوْرَ وصوله إلى تلِّ صُعُدْ،توجَّهَ العبيدي إلى دار جرهم يتبعه اسماعيل.قال لامرأة جرهم :" هاتي لي منسَفَ نحاس بسبع حلقات" .تململَ عطا في جلسته،ونظر برجاسُ إلى عطا.قال عطا: "أنا حمَلتُ المنسف من دار فايز بومغضب" .ثم قال العبيدي لاسماعيل:"امسكْ ذاك الديك الأسْود".ذبحَ الديكَ في المنسف وملأهُ بالماء،ثم سَجَّى اسماعيلَ في مركز دائرة المنسف.انطلتْ هذه الخدعةُ البصريَّةُ على الجنية،إذ رأتْ اسماعيلَ يتخبَّطُ في بِرْكَة دم،فتخامَدَ حقدُها..ظنَّتْ أنه قضى. اشترَتْ امرأةُ جرهم ثمانية أرطال من القمر الدين.صنعَتْ منها قميصاً ضافياً، ألبَسَتْه لاسماعيل،وطلبَتْ إليه أن يخرجَ إلى الساحة كي يأكُلَ الأولادُ الذكورُ نذرَها.تراكضَ الأولادُ صاخبين ..وأكلوا اسماعيل .

4

وصَلَ المفزِّع من دومة جندل صائحاً من فوق حصانه طالباً مؤازرَةَ تل صُعُدْ..فابنُ مهيد خطفَ الأميرةَ لميا بنت العرَّاد،شيخ اللجاة.

لم تكن صفةُ "كَسَّارْ " تُعيبُ صاحبها،أوضحَ برجاس.ورجالُ ابنِ مهيد كسَّارَة،محاربون جوَّابون، ينهبون القمح في سهل هورا،وبيوت الحضر في بصرى ،وكرومَ فيليبوس في شهبا..يغيرون ويفرُّون. وابن مهيد أخطرهُم،وأشدُّهم ضراوةً،ومُطاعٌ بينهم.صمتَ برجاس وعيناه تحملقان في طحلب الخابية في مضافة ناهي،وصمت الجميع فلا يُسمَعُ إلا انسكاب الشاي في الكؤوس،وهسيس اللوكس المعلق بقضيب فولاذي يتدلى من السقف. رشف برجاس رشفتين،عدلَ عقاله الأسْودَ،ثم حشرَ طرف شماغه الرمادي تحت العقال ونظر في وجْهِ فضلو،ثم في وجه نصار.نهض فضلو وتصالح مع نصار،تعانقا تحت ضوء اللوكس،بكى فضلو،وأجهشَ نصار:" تواخذنيش يا خيِّي " .نهض برجاس.وقفوا جميعاً.دعاهم عطا إلى داره:" تفضَّلوا عَ أفضالكم بُكرا " . ردُّوا: "إنت صاحب الفضل". قال برجاس : تصبحوا عَ خير .

F.Ridan

5

...أما في حَرَّان العواميد،فيسُوْدُ الإعتقاد ،أن ابنَ مهيد من أهل الماء.وأنه أبيضُ الوجه وذو شعر ذهبي مُحْمرّ كأبناء الروم،وهذا ما ترفضه ريوف بنت كايد،لأن هيئة ابن مهيد،وفْقَ ريوف،تعتمدُ على دخيلة الناظر إليه،فإن كان الناظرُ من الموحِّدين فلسوف يرى وجهاً مكفهراً " يلصِفُ مثلَ الحنيش الأسْود "وهي سمعتْ ذلك في صفد " جماعة سادقين خبَّروني،سمعوها من شيخ العقل " . وتعتقدُ فئةٌ غامضة تعيش في خرائب الأوس أن ابنَ مهيد مخلوقٌ جهيضٌ،أمُّهُ صوفيا *Sophia* التي تجوبُ الدوائرَ النائية على تخوم الأنوار العُلوية،وأنها تحرَّقتْ لنار الفحولة،واستعرَتْ رغبتُها فحبلتْ به دون رضى النور.شعَّتْ للخارج،بدَّدَت طاقاتٍ كونيةً..وأسْمَتْ وليدَها،الذي ارتعبَتْ منه آنَ رأتْهُ: يُنجبُ جُنداً ،ويزعم بعضُهم أنها أسمَتْه : المدجَّجُ بالحماقة ، وهناك من يقول أن اسمَهُ حارت بن ترماح لأنه حارَ أين يزيغُ عندما فاض العقلُ،وتنزَّلَ النَّفْسُ،وحاصراهُ في السماء الرابعة، وأن ابن مهيد بلا أب: " أب ليس .. إبليس " . أمَّا برجاس فقدْ سمعَ من القميزي أن " ابن مهيد من عرب السَّلوْط " .

..وفضلاً عن كونها أميرة ابنة أمير،فقدْ كانت الشيماء،زوجة العرَّاد " امرأة مثل قلب النهار،امرأة توزن قبيلة " قال برجاس. لميا ليست بنت الشيماء، لميا ابنة العراد من زوجته الأولى: الفهيدي.ثم أسهبَ في وصف لميا.فهي أميرةٌ مَلوْلة،سرعان ما ينحرفُ مزاجُها،وحين يباغتُها الضَّجَرُ،يجتاحُها،ويتفشَّى في دمِها،ثم يتسَلَّلُ ويعَرِّشُ في ثنايا نفْسِها،فتنقلبُ لبوةً ضارية..وكثيراً ما رآها الناسُ في نبيذ الفجر،على الشرفة الشمالية لديوان أبيها،جالسةً في صمت على المصطبة، وعيناها عالقتان بغيمة. وذات نبيذ،،خرجتْ الشيماءُ من الدار،من بوابتها الشرقية،على كتفيها عباءةٌ بالية،وفي يديها سلَّتان،رأتها لميا وهي تعْبُرُ تحت القنطرة،وفهمَتْ أنها تأخذُ زوَّادةً للرعاة. فكَّرَتْ:" لماذا لا تأمُرُ الشيماءُ أحَدَ المكاريَّة،أو المرابعين،بحَمْل الزوَّادة؟ألا يقلِّلُ ذلك من هيبتنا؟ ".. في هذه اللحظة ،استيقظ العرَّاد ونادى على الشيماء: " أم ضرار ! ". سمعَتْهُ لميا ولم تُجبْ .فكَّرَتْ كيف أن أبيها لا ينادي الشيماء باسمِها المباشر،ولا يناديها " أم غديِّرْ" ،ضرار ابن الفهيدي،ضرار توأم لميا،أما غديَّر فأخوها من أبيها،غدير ابن الشيماء،وهو،يومها، لم يكن في الدار،كان فتى يافعاً

يعيش معظم أيامه في مضارب أخيه ضرار.حيث يستهويه الصيد،وفنُّ السيف.. " لميا ! " ردَّتْ: "يوبا " ..ونزلتْ على الدرجات الحجرية المنحوتة،السوداء والمعشوشبة .

اقتربَتْ الشيماءُ من بيوت الرعاة،وصار بوسعها أن تُميِّزَ الناقةَ البيضاء من فطيمها الأسْوَد.التفتَتْ ناحية الحصان الأبجَر،رأته ينظرُ إليها، قالتْ : " صبحكْ بالخير يا الأبجر " ..هزَّ الحصانُ رأسَه ودار في الحظيرة دورتين..لاقاها الرعيانُ والنسوةُ الحلَّابات..تسابقوا للسلام عليها..حملوا عنها الزوادة،وفي اللحظة التي أحاطوا بها فرحين ،علا صياحٌ،واقترَبَتْ جلبةُ خيول،بدا واضحاً أنها إحدى غارات الكسَّارة ..فقدْ اندفعَ فرسانٌ ملثمون واجتاحوا المضاربَ،ساقوا أمامَهم قطعان الماشية،وبوش الإبل.. " قشُّوا الحِلِّي والحلال" قال برجاس.ورات الشيماءُ احدَ المغيرين يفكُّ عنان الأبجر،ثم اقتربَ فارسٌ نحوَها،فهِمَتْ أنه كبيرٌ فيهم،ربما قائدهم،أوقفَ حصانه أمامَها،تأمَّلَ جَمالها،والعباءةَ البالية على كتفيها..ثم خاطبَها :

يا بنت ! إلْ لبَّسِكْ بَلو العبا يبلى بسيفِ من يميني الشَّافي

يا بنت!عزبا؟ ولاَّ انِّكْ حليلة؟ رُمَّان نهدِكْ للعقل خطافِ *

ردَّتْ : آني حليلة مِنْ يعزّ القاصر يعطي عطا المعبود ربي الكافي

هسَّعْ يجيك مْشوِّحٍ بِ رْدُونه إنتو الحباري وهوْ لكم حَوَّافِ **

كان ابنُ مهيد بشحمه ولحمه،قال برجاس.ولم تكن هي تعرفه،ولم يتوقَّعْ،هو ،ردَّها،ولا يعرفُ أنها الشيماء زوجة العرَّاد،ولا يستطيع احتمال وصْفِهِ،ورجالِهِ،بالحباري،وهو،بالطبع،لا يتمرجَلُ على امرأة.

.....

* تُنسب لابن مهيد

** تُنسبُ لزوجة الأمير بنيَّان

لم يُجبْ،حارَ،ثم لوى عنان حصانه وابتعد.نظرتْ الشيماء تجاه الأبجر،فرأت رجُلاً يمتطيه ليسرقه،نادت: " تاعْ يا الأبجر " . رفع الحصان قائمتيه الأماميتين بغتةً واندفعَ إليها،سقط اللصُّ على الأرض.توقف ابنُ مهيد وراح يتأملُ ماجرى.كبرت الشيماءُ في عينيه،بهَرتْه بجَمالها،وهدوئها، ورزانتها،وشجاعتها،وحصانها،واعتدادها بزوجها.نهض اللص وركض تجاه الشيماء،في محاولة لاسترداد الحصان،وربما لمآرب أخرى،فانتهرَه ابنُ مهيد.توقف مرغماً،وابتعدَ مغتاضاً.ولمحَ ابنُ مهيد خيَّالاً يطيرُ انخطافاً ويتقدَّمُ نحوَهُ،ولاحظه أيضا بعضُ فرسانه الغزاة،فاستداروا بخيولهم،وسيوفهم لمواجهته.لكن ابنَ مهيد عرف أنه العرَّاد،وأن المواجهة تحدٍّ شخصي له،فثنا رجاله عن التدخل:سيواجه العرَّاد منفرداً.

"عسى ما بيك شر؟ ". سألَ العرادُ زوجته.قالت: " من الله بخير..دونك البوش وراس الكسَّارة " وأشارت إلى ابن مهيد.وقال برجاس إن في إشارتها تنبيها لزوجها من أن خصمه لا يستهان به .. في الجولة الخامسة،اقتلع العرادُ ابنَ مهيد عن حصانه وأوقعه أرضاً، ثم قفز وكاد يهوي عليه بالسيف ويقتله عندما قالت الشيماء: " هونك يا العراد.عندي كلام ولازم ان يسمعه ".خاطبَتْ ابن مهيد:

تبغي حلال الناس ما بَكْ خفوقي وعمرك تبدَّدْ بالبراري قلوقي

ثم طلبتْ إلى زوجها:

عِفّ يالعرَّاد عَفّة مقتدر وانتَ اللي عقْلك للناظور سْبُوقي***

بعد ذلك ، اقتربتْ من ابن مهيد،نظرتْ في عينيه وقالت :

قمْ يَمَّاي! رُدّْ البوش بالطيب والنمر ما يدانيه طوق السِّلوق

وبرأي برجاس أنها قالت له "يمَّاي" وهي تعني ما تقول،لأنها لاتستطيع أن تحقدَ عليه،ولأن التحنانَ متأصِّلٌ في طبعِها،وقد كان الرجال،بمن فيهم كبار السِّن،يشعرون أمامَها بأنهم أطفال،وينادونها" يَمَّا " وهي لم تبلغ الثلاثين.صحيح أنها وصَفتْهُ بأنه بلا قلب،لكنها مدَحَتْهُ بأنه نمِرٌ،وحذَّرَتْهُ من الوقوع في

.....

*** (عقلك للناظور سْبوقي) للشاعر علي عبيد

الأسْر إنْ هوَ كابَر.ففرسان دومة جندل يقتربون،وابنُ مهيد رآهم،ولاحظَ رَكْضَ خيولهم الذي : "يشبه هبوب القطا ".ثم عرضَتْ صُلحاً واضحاً : أعِدْ ما أخذتَ وينتهي الأمر.وابن مهيد الذي أرهبَ الرجالَ ،وروَّعَ البادية،غمَرَتْهُ عذوبةٌ راعشة مُذْ نطقَتْ " يمَّاي" .أحسَّ أنها أمُّهُ حقَّاً،فانقاد لها كالطفل،وارتضى الصلحَ طائعاً.

صارت لميا تتردَّدُ على المضارب..ولطالما لمحَ الرعاةُ،أثناء وجودها،فارساً يُحَوِّمُ في البعيد،ولاحظ بعضُهم بريقاً في عينيها كلما اقتربَ الفارسُ من التخوم.وأكَّدَ برجاس أن حقدَ ابنِ مهيد على العرَّاد لم يهجَعْ.وللعراد ابنتان:لميا وأميمة.أميمة بنت الشيماء.وهي أجملُ من لميا.ابن مهيد خطفَ لميا.هو لا يريد إيذاء الشيماء،لا تطاوعُهُ نفسُه.فقام بخطف لميا من مضارب الرعاة.كان يعرفُ أن فرسان جندل،والعراد،وابنيه:ضرار وغْدَيِّرْ ..موجودون على مقربة.وحتى لا يقال أنه غادرٌ،بعثَ أحدَ رجاله إلى العرَّاد ليقول له : " ابنُ مهيد يطلبُ يَدَ الأميرة لميا.إنه في المضارب ينتظر منكَ الرَّد " .وتعرفُ الباديةُ كلُّها أن لأهل جندل مذهبهم الديني.الرجلُ منهم لا يجرؤ على الزواج من امرأة ليست من مِلَّتِهِم.فكيف يزوجونَ أميرَتَهم لابن مهيد.هو،إذن، إعلانُ حرب.

كان الارتطامُ الأولُ بين موجة الخيَّالة التي يقودها العراد من جهة،وفرسان الهجَّانة بقيادة ابن مهيد من جهة أخرى.وقاد ضرارُ عشرةَ فرسان واخترق رفوف الخيالة باحثا عن أخته..شاجَّا رؤوسَ المحاربين،مجندلاً أعتى الرماحين.واقتحم غديِّر ميمنة ابن مهيد،وسرعان ما ضعضع صفوفهم،وباعد بين المقاتلين وقادتهم،ثم ظهرتْ له الغلبَة،ففرُّوا أمامَه.وطاردَهم حتى تل إشيهِبْ شمال شرق الخالدية. وكان ضرار همَسَ لصديقه عطا الزير : " تأكَّد إن كانت لميا تقاوم خاطفيها " .والحقيقة فإن ضرار كان قد حسمَ أمرَهُ: سيقتلَ أختَه سواء خُطفتْ عُنوةً ،أو عن طيب خاطر!.فما إن انتزعَها من الخاطفين حتى قتلها..وحين أيقنَ رجالُ ابن مهيد أن الدائرة تدوْرُ عليهم،بادرَ أحدُ آمري حرْبه إلى إشعال النار في حقول القمح في سهل هورا،عند ذلك أمَرَ العرَّادُ كايد بوحمدان : " فزِّعْ تل صُعُدْ عَ قموحهم " .وقد فصَّلَ برجاسُ في هذه النقطة.فالعراد كان قد حسم المعركة وهَزَمَ ابنَ مهيد،وهو يريد من الفلاحين إطفاء الحرائق في محاصيلهم، هو لم يطلبْ مساعدتهم في استرداد عِرْضِه.ثمة فرْقْ.

الأمر الآخر ان ضرار لم يذبحْ لميا بمنشار بادح.من أين يأتي بمنشار في سُهُب هورا؟.كان دمُهُ يفور،رفع سيفه ليقتلها ثم استدرك.أيقتلُ امرأةً بالسيف؟لماذا يمنحُ لميا هذا الشرفَ؟.رأى فلاحاتٍ

F.Ridan

مذعورات،كنَّ يجمَعْن الكزبرة البرية والهندباء وفي يَدِ إحداهُن نَبُّوْتٌ .أشار لها ضرار : " يا بنتْ! رَوّحي جاي ".اقتربَتْ مهاني بوفاعور وهي ترتعد،أخذَ النبوتَ من يَدِها،توقَّعَ أن يَحُزَّ عنُقَ لميا بضربة واحدة،بمحاولة واحدة،لكن النبوت كان بادحاً.وهذا ما قالته ظمياءُ بنت سيطان الطُّود بعد عشرين عاماً: " بالنبُّوت ذبحتوني".وظمياء الطود هي : هي: لميا بنت العراد!. التي ما إن ذُبحَتْ حتى تقمَّصَتْ.نطقتْ في الخالدية.انتقلتْ روحُها وحَلَّتْ في امرأة أخرى : ظمياء سيطان الطود .ومُذْ كانت ظمياء طفلة،لاحظتْ أمُّها غرابة أطوارها.وكثيراً ما كانت تتعربشُ على سطح التبَّان وتنادي في حُرقة : " مهيييد ! ".لكن الذي حدَثَ بعد ذلك بدَّدَ الشكوكَ وجَلا حقيقةَ ظمياء.ختنَ سيطان الطود ابنه نايف،شقيق ظمياء وتوأمَها،ومثل كل فلاحات الخالدية جاءت مهاني بوفاعور لتبارك.ما إن رأتها ظمياء تدخل الدار حتى انقضَّتْ عليها كذئبة،ورشَقتْها بأقذع الشتائم :

"انقلعي من هون يا كلبة ".ركض سيطان وصاح بظمياء: " اخرسي ولي! يقطع عمرك". ثم قال لمهاني: "تفضلي أم معضاد ..لا تواخذيها طفلة..تفضلي البيت بيتك" لكن ظمياء ردَّتْ في ضراوة: " شو جابك لَ هون يا أم نبُّوْتْ ".تسمَّرتْ مهاني في مكانها.أيقنتْ أن هذه الطفلة هي،حقاً،لميا. قالت:" طهور مبارك " وانصرَفتْ.لكن لميا،مُذْ صارت يافعة،صارت تصمتُ أكثر،وتتحَفَّظُ في كلامها،ولم يعدْ بمقدور أحد أن يعرفَ ما تُضْمرُ،أو فيما تفكِّرُ.وفي أيام الربيع كانت تذهَبُ مع بنات في مثل عمرها إلى السهول،تجمعُ مثلُهُن الهندباء والعكُّوب،لكنها كانت تتوغل أكثرَ في سهل هورا باتجاه رجمة العبد.وذات ضحىً قالت لأنصاف بنت خزاعي: "بتروحي معي عَ الكزبرة؟".نزلتا من الدرب الصخرية الضيقة التي تلتفُّ حول صخرة الزاعقة .وإذْ صارتا في السهل،قالت لأنصاف : "خلينا نتمشَّى عَ الكَرُّوسا" وهي تقصد طريق الكابتن كاربيه.ضحكت أنصاف وقالت لها: "كَرُّوسا؟ كأنك من دومة جندل ".غير أن ظمياء توقفتْ عن المشي ونظرتْ في عيني أنصاف غاضبة.قالت أنصاف تمازحها: " زعلتي منِّي؟ تضربي شو بقرة "..تابعتا سيرهما شمالاً،وعندما وصلتا قرب رجمة العبد التفتتْ ظمياء شرقاً تجاه الرجمة وقالت : " استنِّيني شوي" ،كأنها تريد قضاءَحاجَة. لاذَتْ شرق رجمة صغيرة على مقربة من رجمة العبد،لكنها تأخرت،ما دفعَ أنصاف لمناداتها:"ظميااا " في المرة الثالثة ردَّتْ : " جاي .. جاي ". ولم يخطر في بال أحد أن ظمياء تبحثُ عن عظامها،وأنها ما تزال تعشق ابن مهيد،وتنتظره.ويوم اختفتْ مهاني بوفاعور كأنها حبَّةُ ملْحٍ ذابت،خطرَ لأخيها فواز أن يبحث عنها في بئر هورا.أخذَ حبْلاً وخُطافاً وقصَدَ البئر ليلاً.بعد ساعتين شعر أن ثقلاً علقَ

في الخطَّاف.سحبَ الحبل فلم تفاجئه جثة مهاني المنفوخة.رفض رجالُ الدين الصلاةَ على جثمانها.اعتبروها منتحرة.لكن أنصاف تعرفُ أن ظمياء الطود استدرجَتْ مهاني إلى البئر،رمَتْها بلا تردُّد وجلسَتْ على الجرن الحجري. لم تغادر البئر حتى هدأتْ صيحاتُ مهاني.

ولطالما حكى القميزي بوغنَّام الحكاية ذاتها،وهويُسمِّيها:حكاية لميا وشبلي التل.في حين يسميها برجاس:حكاية بنت العراد.ونفهم من حكاية القميزي أن ظمياء الطود،وفي ليلة مقمرة،اقتحمَتْ مضافة أخيها ضرار التي كانت تزدحم بالضيوف،والسمّار،وزعماء القبائل.دخلتْ المضافة وفي يدها كيس خام أسمر، لم تلق التحية،أفرغتْ عظامَها أمام ضرار،نظرتْ في عينيه مثل لبوة،ثم بصقتْ في وجهه وقالت : بالنبُّوت ذبحتوني .وتختلف هذه النهاية كثيراً عما هي عليه في حكاية برجاس.ولا يقتصر الفارق على النهاية،أو اسم الحكاية.القميزي يأخذنا إلى مناخات أخرى،ويبدأ الحكاية من زمن آخر،وأول كلمة ينطقها : " البورتزان " .ثم يوضح ساهماً : " ولادنا اللي تطوَّعو بالجيش الفرنساوي " . وعنده أن الجنرال أندريا قد استثمر كتيبتي البورتزان حتى كاد أن يخمد الثورة،إذ كان يدفع بهم إلى مقدمة كل حملة يشنها على الثوار،ودحام شاباني الذي كلفه صقر الجُرْهُمي بقيادة الثوار في معركة بيار القطا رأى أخاه ضامن وابنَ خالته متروك في الجبهة المعادية،وكان على يقين من أن كل مقاتل في جماعته له قريبٌ في البورتزان،هل يعطي شارة الهجوم؟هذا يعني ؟أنه سيقتل أخاه ضامن.هل يفر بجماعته؟..سمعَ الثوار صوته مخنوقاً،وراجفاً ومتردداً : " انسحبووو ! " لكن بعد فوات الأوان.فقدْ أطبق أندريا قبضته عليهم وقتلَ الجميع :أربعة فرسان،ورمَّاحَين،وسبعة سيَّافة ودحام.جُنَّ جنون صقر الجرهمي الذي كان في الوقت ذاته يداهم قطار الجنود الفرنسيين قرب المسمية ويمنع تقدمهم نحو الجنوب. لم يسمح لرجاله بأخذ قسط من الراحة،قادهم في شعاب اللجاة..انتظر حتى خيم الليل ثم انقض على قلعة هيت حيث
جنودأندريا،ومستودعاته،ومكتبه،وحظائر خيله،وأحرق القلعة بمن فيها.نجا أندريا بأعجوبة..فرَّ مع قلة من معاونيه وحرَّاسه.

وفي معركة بوسان اتخذ داهش عزيز قراراً مختلفاً : أعطى أوامره بإطلاق النار على كل من في الجبهة المعادية ، قُتلَ محمد جمول ومرشد القضماني من البورتزان وجنود فرنسيون آخرون ، وهنا ، أيضاً ، استثمر أندريا النتيجة في صالحه : أشعلَ فتنةً بين عائلة عزيز من جهة ، وعائلتي جمول والقضماني من

جهة أخرى ! ..وقد قُتلَ في هذه الفتنة سبعةُ رجال . لقد كان رجال الثورة أمام خيارات صعبة : إما الانسحاب والفرار من مواجهة أندريا ، وإما أن يقتلوا ذويهم من البورتزان لتشتعل الفتن بين العائلات في القرى والبلدات ، ومعنى ذلك أن أندريا رابح في الحالين . هنا ، يقول القميزي ، يأتي دور شبلي التل ومعه ريدان وهاب والفتي الجزائري الأخضر بشير ، الذين فَروا بأسلحتهم من الجيش الفرنسي وانضموا إلى صفوف الثوار . فقد وضع صقر الجُرهمي هذه المعضلة بين يدي مستشاره ، وساعده الأيمن ، إبراهيم الرشماني الذي تربطه صداقة قديمة بشبلي التل منذ أيام الدراسة في باريس . وفي حين عاد إبراهيم إلى سوريا ، ترافقُه زوجته الفرنسية ، لينخرطَ ، فيما بعد ، في الثورة ، تخرَّج شبلي من كلية الحقوق وانضم إلى القوات الفرنسية العاملة في السنغال كعضو في هيئة استشارية وبرتبة ملازم . وبالطبع فإن المشاغل الكثيرة حجبتْ أخبار الصديق عن صديقه . غير أن قوات فرنسية نُقلت من السنغال إلى الجزائر أولاً ثم إلى سوريا تالياً وكان شبلي في تعداد هذه القوات ! . لكنه كتبَ استقالته وقدمها لديوان المفوض السامي غداة قصف الطائرات الفرنسية لدمشق ... . وإبانَ خدمته في الجزائر ..كان شبلي قد التقى شباناً جزائريين سيقوا إلى الخدمة الإلزامية في الجيش الفرنسي ، وكان الأخضر اسماعيل واحداً منهم . تعارفا في الدورة التدريبية ، في حقل الرماية بالبندقية نوع ترامبلو المزودة بمنظار تسديد وجهاز لقذف القنابل اليدوية . وقد توطدتْ مودةٌ بين الرجلين إلى درجة أن الأخضر ، ذات مساء ، دعاه إلى بيته ، ويذكُر شبلي أن أشخاصاً آخرين كانوا في تلك السهرة ، وأن أحدَهم ألمحَ في حديثه إلى ثورات ضد الفرنسي . ولطالما لاحظَ شبلي جدية الأخضر في عمله فقد كان يقود فريقاً صغيراً مهمته الترفيه عن الجنود..وقد رأى شبلي بعض المشاهد الكوميدية ، والفقرات الفنية التي يقدمها الأخضر ، ولاحظ أيضاً أن معظم هذه المشاهد ، والحوارات ، وملابس الممثلين ، وفقرات الموسيقى ..كأنما تتظافر لتقول شيئاً واحداً : الحرية ! . شبلي على اقتناع أن الأخضر فنان أصيل ، وأن دماثةَ خلقه، ودعاباته ، ورشاقته على المسرح .. موشاةٌ بأسى، وحزن شفيفين . شبلي يحبه حقاً ، لكن الأخضر درس الفن المسرحي في موسكو ، وشبلي يخشى أن يكون شيوعياً ! ..إنه يحبه ولا يريد أن يكونَ ملحداً ! ..صحيح أن شبلي عاش وتعلمَ في أوروبا وعرف أناساً كثيرين ، بيضاً وسوداً ، بوذيين وقساوسة ، مثقفين وملاحدة ، راهبات وبنات ليل.. وصحيح أيضاً أنه من أسرة غير متدينة في مجدل شمس لكنه في طبعه، ينفُر من الأفكار التي تشكك بوجود الله أو مكانة أنبيائه ، لكن هذا النفور لم يمنعه من التعاطف مع الثورة البلشفية . ! وكان ريدان وهَّاب يصنع البواريد ، وقناديل الكيروسين ، ويقلع الأضراس ، ويتاجر بالخيول

..واشتهر كصياد يجوب اللجاة وأرض الحمَاد .. وله آراءُ طريفة برجال الدين لم يُفصح القميزي عنها ! . تطوع ريدان في الجيش الفرنسي ليخفف الأعباء عن أبيه الذي يُطعم تسعة أفواه في أيام ماحلة . وكان فتى محبوباً في معسكر المسميَّة ، وربطته علاقات حميمة بجنديين آخرين : بطرس القطامي وأحمد بكري وهما فارسان في كتيبة الخيالة ، ولسوف يتعرَّف الأخضر إسماعيل ، أول ما يتعرف ، على بطرس القطامي في الأيام الأولى من وصوله إلى ثكنة المسمية ، ثم تتوطد علاقته بالمجموعة ، ولا يتردد في الإشادة بأفرادها وامتداحهم قدام شبلي التل .. . وفي حين كانت سوريا تحت الوصاية الفرنسية كانت الأردن خاضعةً للإنجليز ، وقد أدركَ الثوار السوريون حقيقة الأحقاد التاريخية وضراوة الضغائن المضمرة بين باريس ولندن ، واستثمروها لصالحهم . فقد كانت رفوفٌ من فرسان الثورة تطير انخطافاً وتباغتُ الحاميات الفرنسية وتفر إلى الأردن . تحت مرأى وسمع ، ومؤازرة الإنجليز ! . ولكن إلى متى ؟ كان إبراهيم الرشماني قد طرح السؤالَ على نفسه أولاً ، وكان يدرك أن يوماً سيأتي يُمنع فيه الثوار، وقادةُ الثورة من العبور إلى الأردن ، ربما فاتحَ إبراهيمُ صقراً الجرهمي بالأمر ، القميزي لا يعرف ، لكنه يؤكد أن الذين انشغلوا أكثر من سواهم في البحث عن إجابة : شبلي التل ، الأخضر إسماعيل ، بطرس القطامي ، الجهيمي بن تلَد برجاس ! ولاحظ الحاضرون أن حكاية القميزي تبتعدُ عن حكاية برجاس ، مثلما لاحظوا أن حكاية برجاس لا تشير إلى هذه الأحداث ، قلة منهم لاحظتْ أن برجاس من أبطال حكاية القميزي ! صمتَ القميزي .. بدا كأنه يسمعُ هواجسهم .. ثم قال .. " : الجهيمي نشمي .. والنشمي لا يتحدث عن نفسه ! " ..وعاد القميزي إلى صمته ثم قال بغتةً " : كاسترو ! " ووسط دهشة الحاضرين أوضحَ القميزي : " هذا حصان الكولونيل لوسيان قائد معسكر المسمية ! " . فقد زوَّدَ الفرنسيون وحداتهم بخيول جديدة شحنوها في البواخر ، وكان نصيبُ المسمية خمس مهارى وعشرةُ أحصنة ، أحدُ الأحصنة أسودُ فاحم، وقوائمه غليظة ..نافسَه حصانٌ على أنثى حائل .. فما كان منه إلا أن نهشَ الحصان وأخذَ يلتهمه ! وإذْ رأى لوسيانُ ذلك أمر الجنودَ بأن يشجُّوا رأس الحصان الأسود بالفأس ، ثم أخذ دماغَ الحصان بكفَّيه وأطعمَهُ لحصانه كاسترو .. ! ويوم قررتْ مجموعة شبلي التل التمرد على الفرنسيين والانضمام للثورة ، أخذَ ريدان وهَّاب الحصانَ نفسَه : كاسترو . وداهمَ الأخضر إسماعيل مخازنَ الأسلحة فأخذَ البنادق الحديثة وسحبَ أحمد بكري وبطرسُ القطامي ومزيد العقباني صناديقَ الذخيرة وحمَّلوها على ثلاثة بغال ، لكن مجموعة من الحراس باغتتهم فقال أحمد : " خذوا الذخيرة واتركوني " .. قاد بطرس جماعته جنوب شرق تجاه بيار القطا وانتظرَ مجموعة ريدان وهاب التي تأخرتْ نصف ساعة ،

فحين دخلَ ريدان إلى إسطبل كاسترو رآه حارسٌ سنغالي ، قال ريدان : إذا كنتَ تريد أن تحلبَ الخَرُّوب للحصان بإمكانك أن تذهب وأنا أحرسُ كاسترو ! .. لكن السنغالي رفض أن يتهاونَ في أداء مهمته فاضطُر ريدان أن يقتلَه ، قتله بخنجر وأسنده إلى الحائط وأسرع يفُك عنان الحصان ، لكن قريباً للسنغالي دخل الإسطبل وفي يده صحنُ معكرونة ، وإذْ رأى قريبه مقتولاً وقفَ ذاهلاً .. ثم استوعب ما يحدثُ وأوشك أن يصرخ فباغته ريدانُ بالخنجر ذاته .. ثم امتطى كاسترو وانطلقَ في السهب .

6

ما إن التأم شملُهم ، الأخضر وبطرس ومزيد وريدان وأحمد ، حتى بدأوا في بناء دفاعاتهم ، والمرابض البديلة ، وكيفية الوصول إليها ، وطرق الإمدادات ، وتنظيم الحراسة ، ومراقبة تحركات الفرنسيين . وكانت رجمةُ العبد والصخور المحيطة بها في رُقَّة المقرونين ملاذاً آمنا لَهم . وكان بطرس وريدان هما اللذان اختارا هذا المكان وقدَّما تصوراً واضحاً للأخضر اسماعيل قبل تمرد الجماعة وقبلَ أن يقرر أفرادُها موعد ، وتفاصيلَ الفرار . وكانوا يغيِّرون أماكنَ تواجدهم كل يوم . . مستفيدين من معرفة ريدان بمخابئ اللجاة وعلاقاته بالبدو في أرض الحَماد . وحدَثَ مرَّةً أن رأوا ، من مكامنهم ، دوريةً فرنسية ، تأهبوا وأخذوا وضعاً قتالياً ، اقتربتْ الدورية أكثر فقال الأخضر : لا تطلقوا النار إلا إذا هاجمونا ، سادَ صمتٌ ثقيل ، وانقضتْ ساعة قبل أن يقولَ الأخضر : مهمتهُم لا تتعلق بنا .. لسنا هدفهم . وبالفعل ، غيرتِ الدوريةُ مسارها وانعطفَت تجاه تل شيحان شمال شهبا . وبعد يومين من هذه الحادثة كانت الجماعةُ على تخوم بركة السرج الصخرية عندما لاح من بعيد فرسانُ أربعة . أمرَ الأخضرُ جماعته بالابتعاد عن المياه واتخاذ مرابض خلف الصخور المحيطة ، تحركوا على الفور وانتظروا . ثمة ضابط فرنسي ويطنان وجنديان ، كل على حصانه ، لكن كل جندي يقود بغلاً محملاً بصندوقين ، قال بطرس : هذه بواريد ترامبلو قصيرة ، أو ذخيرة رشاش متر اللوز . ردَّ الأخضر : لا تطلقوا النار . قال أحمد : نستطيع أن نقتلهم ونأخذ الصناديق . أكدَ الأخضر : إذا هاجمونا فلسوف نرى . اقتربَ الجنود من الماء ، ترجلوا وتركوا خيولهم تشرب .. ثم تابعوا طريقهم . قال أحمد : كان بوسعنا السيطرة عليهم ، أجابه الأخضر : ليس الآن .. فقالَ ريدان وماذا ننتظر ؟ رد الأخضر : ننتظر قائدَنا ! . التفتوا إلى الأخضر واجمين ومستوضحين ، وبدا الأخضرُ كأنما قال ذلك غير عامد ، أو كأنما زلَّ لسانه، لكن هذا الأمر كان واحداً من هواجس ثلاثة تقلقُ الأخضر .. وعندما ، بعد صمت ، سأله بطرس :

عفواً سيدي .. مَن قائدنا ؟ .. أجابَ الأخضر على الفور : شبلي التل

وقد اتخذَ الأخضر اسماعيل قراره بأن جعلَ رجمة العبد مركز الإمداد ، والانطلاق الرئيسي للثوار ، وكان من الطبيعي أن يحيطها بعناية خاصة ، وأن يدرسَ كل الاحتمالات ، .. وفي سعيه لمنع المخبرين ، والفضوليين ، وعيون الفرنسيين من الاقتراب من الرجمة خطرت له فكرة . راقبَ تحركات الفلاحين فلاحظَ أنهم لا يقتربون من الرجمة والصخور المحيطة بها ، فأراضيهم الزراعية في المناطق السهلية المجاورة ، فلماذا ، إذن ، يرى بعض الأشخاص يدخلون إلى رُقة المقرونين ؟ .. أوضحَ له ريدان وهاب أن بعضهم يقتلع الشيحَ، أو الجزْلَ لاستخدامه حطباً في التنور ، وفي هذه الحالة ترى خُرجاً منتفخاً على ظهر حمار ، وفوق الخُرج زكيبة شيْح ، أما بِركة الماء فهي على طرف الرُّقة ، ومن أرادها فلا حاجة به للتوغل داخل الرقة . ارتدى الأخضر اسماعيل ملابسَ ذات ألوان فاقعة : سروالاً أصفرَ وقميصاً أبيضَ من حرير لاصف ، وكان واضحاً أنه ، يوم تمرده وفراره من الجيش الفرنسي ، لم ينسَ اكسسوارات الممثلين .تسلَّلَ إلى رُجمة العبد عصراً ، حام حولها ، تأملَ الزريبة الدائرية المهجورة ، الرَّسْمَ وانساقتْ أفكارُهُ خلْفَ هواجسه .. لمحَ فلَّاحاً يدخل بين صخور الرقة وهو يسوقُ حماراً أمامه ، دخلَ الأخضر إلى الرسم الدائري تربعَ والتقطَ بعض عروق الخس البري والكزبرة ، لم يكن يتوقع أن يقترب الرجل تجاه الرسم ، لكنه فوجئ بمن يقولُ له : السلام عليكم ! .. رد : وعليكم السلام ، ثم خطرتْ له فكرة فقال للرجل : دخان ! .. معك دخان ؟! .. فرمى له الرجل علبة فضية ، والأخضر في الأصل لا يدخن ! .. كان ذلك أشبه بدعابة ، لكن الأخضر دفع الاحتمالات إلى مداها ، وسألَ نفسه : ماذا لو كان هذا الرجل مُخبراً ؟ . أخرجَ الأخضرُ اكسسوارات الممثلين ، ارتدى قفازاً يكسوه وبْرٌ أسودُ وينتهي بأظلاف كأظلاف الماعز ، وإذ عاد الرجلُ لأخذ علبته قال الأخضر : لا أعرف كيف أُلف سيجارة وطوح بالعلبة ..وبعد أن لفَّ له الرجلُ لفافةً ، نهض إليه وتعمَّدَ أن يريه كيف تنتهي يداه بأظلافٍ ليُدخلَ في روعه أنه من الجن ! .. علَّ هذه الحيلة تنطلي عليه فيُخبر الناس .. ويخاف المخبرون والفضوليون فلا يقتربون من الموقع ! .. وما حدثَ مع فضلو في رُقة المقرونين ، قال القميزي ، كان صحيحاً . غير أن الجني في حكاية فضلو لم يكن سوى الأخضر اسماعيل .